موقف أينشتاين من الإشتراكية

أسامة حسن مصطفى حماد

الملخص:

تناولنا فى هذا البحث موقف أينشتاين من الإشتراكية باعتبارها تيارًا غريبًا، يقوم على مجموعة من المبادئ والأسس للنظام الاقتصادى الذى يعطى الحق للمليكة الجماعية لوسائل الإنتاج أيا كانت وقد اشتهر هذا النظام فى أوروبا بعد نهضتها الحديثة، وقد اعتمدت الاشتراكية بشكل عام على الأساس المادى وقد تضمنت أيضا المادية التاريخية أو الوضعية، ولذا راح أينشتاين إلى تناول هذا النظام أو تلك الحركة السياسية محاولا بذلك الكشف عن وضع الإنسان فى هذه الحركة باعتبار – الفرد – هو الأساس أو المحور فى ذلك النظام، وقد تناولنا رؤية أينشتاين من خلال نقطتين: أولاهما: إيمان أينشتاين بالعدالة الإجتماعية، وتانيهما:الإنسان في ظل الإشتراكية وقد كانت النقطة الثانية هس الأكثر أهمية عند أينشتاين؛ وليس هو فقط بل كل الفلاسفة والمفكرين فى الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة تلك التى رفعت الإنسان إلى مكانة عالية فى تياراتها ومذاهبها الفلسفية والفكرية، ومما يميز أينشتاين أنه حاول الكشف عن صورة الإنسان فى إطار الإشتراكية برؤية جديدة.

الكلمات المفتاحية: أينشتاين – الاشتراكية – الإنسان – رغباته – موقف

Summary

In this research, we dealt with Einstein's position on socialism as a strange trend that appeared in the West, or as he considers it a political philosophy that includes principles and foundations upon which the economic system is based, which is based on collective ownership of the means of production, whatever it is. The material basis It also included historical materialism or positivism, and so Einstein went to deal with this system or that political movement, trying to reveal the position of man in this movement as - the

individual – is the basis or axis in that system, and we have dealt with Einstein's vision through two points: The first of them: Einstein's belief in social justice, and the second: the human being under socialism. The second point was the most important in Einstein's philosophy and the focus of his attention is not only him, but all philosophers and thinkers in modern and contemporary Western civilization that raised man to a high position in its philosophical and intellectual currents and doctrines. Einstein distinguishes that he tried to reveal the image of man in the framework of socialism with a new vision.

Keywords: Einstein – socialism – Human– his desires – attitude

المقدمة:

تعرف الاشتراكية بأنها نظام اقتصادي يقوم على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج؛ أو كما عرفت بأنها فلسفة سياسية دافعت عن النظام الاقتصادي، القائم على الملكية الجماعية لشخص ما أو مجموعة من الأفراد فى إطار مما يلي: شركات تعاونية أو ملكية شائعة أو ملكية عامة مباشرة أو دولة المؤسسات المستقلة، وقد نبعت الاشتراكية الحديثة من مفكري القرن الثامن عشر والحركة السياسية للطبقة العاملة التي انتقدت آثار الصناعة والملكية الخاصة على المجتمع. وعلى الرغم من أنه فى القرن التاسع عشر أطلق مصطلح اشتراكي كل اهتمام بمشاكل اجتماعية للرأسمالية، دون النظر إلى إيجاد حلول لهذه المشكلات، ومع نهاية القرن التاسع عشر حدث صدامًا أو تضادًا بين النظام الاشتراكي والرأسمالي، فأصبحت الإشتراكية نظاماً بديلاً يعتمد على الملكية الجماعية. ومن هؤلاء الاشتراكيون روبرت أوين (ت ١٨٥٨م) Robert Owen الذى شارك فى وضع أسس النظام الاشتراكى بأسس ومبادئ، وقد اهتم اينشتاين بالإشتراكية ومحاولة البحث فيها وكيفية تحقق العدالة الأجتماعية فى ظل هذا النظام الجديد المخالف للنظام الرأسمالى.

ومن هنا تأتى إشكالية البحث للإجابة على عددًا من التساؤلات هى:

١- ما هو موقف أينشتاين من العدالة الأجتماعية؟

٢- ما موقف أينشتاين من الإشتراكية؟

٣- ما هى قيمة الإنسان فى ظل الحركة الإشتراكية عند أينشتاين؟

واعتمدت فى هذا البحث على المنهج التحليلي ذلك من خلال عرض آراء اينشتاين حول موضوع الاشتراكية وما يرتبط بها، محاولا من خلال هذا المنهج التعرف على موقفه – أينشتاين من قضايا الاشتراكية والإنسان فى ظل هذذا النظام الاقتصادى.

" يعترف أينشتاين بأنه رجل علم، وأنه ليس مختصًّا في علم الاقتصاد، ولكنه وبشكلٍ ما يراوده شعور بأنه لديه القدرة على تقديم بعض الملاحظات على أن «الاشتراكية تهدف إلى غاية اجتماعية/أخلاقية، بينما العلم على أية حال من الأحوال لا يستطيع خلق غايات، أو حتى على الأقل أن يتبلور في شكل غاية بشرية، إن العلم في أقصى تقدير يستطيع أن يوجد الأدوات والوسائل اللازمة لصنع غاية معينة."

يرى أينشتاين أن الدافع وراء الربح الدائم هو السبب في الكثير من المعاناة. ودليل هذا قوله أن «الفوضى الاقتصادية للمجتمع الرأسمالي كما هي حاضرة الآن، في رأيي الشخصي، هي المصدر الحقيقي للشر».

أولا: إيمان أينشتاين بالعدالة الإجتماعية

إذا ما تفكرنا بوجودنا وأفعالنا، سنلاحظ سريعا أن جميع أفعالنا ورغباتنا مرتبطة بوجود الآخرين. سنلاحظ أننا حسب طبيعتنا نشبه الحيوانات التي تعيش ضمن مجموعات. فنحن نأكل الغذاء الذي صنعه بشر آخرون، ونلبس ما صنعه الآخرون، ونسكن في منازل شيدها لنا بشر مثلنا،.. ثم إن أغلب ما نعرفه، ونؤمن به جاءنا عن طريق الآخرين عبر لغة صاغها لنا آخرون.

إن الفرد كما هو عليه، أو ما يمثله، ليس مخلوقًا فرديًا كما يبدو، بل هو عضو في جماعة إنسانية كبيرة تقود وجوده المادي والأخلاقي منذ الولادة حتى الموت. ومن ثم تتعلق قيمة الإنسان بالنسبة لمجتمعه، وقبل كل شيء بقياس عواطفه وأفكاره وأفعاله وتطابقها مع تطور وجود البشر الآخرين من حوله.

كان للعلم والتكنولوجيا – من وجهة نظر أينشتاين– ذات أهمية كبيرة للمجتمع والثقافة، وقد انتهي بحسب رأيه إلى أن ما يفيد البشرية هو تحررها الكامل من الكدح وتعزيز عادة

العقلانية. ومع ذلك، فإن البطالة كانت سمة دائمة للمجتمع البشري، وقد جعلت تكنولوجيا الاتصالات التحكم في العقل والفكر ممكنًا. ومن ثم، كان أينشتاين مقتنعًا بأنه فقط من خلال الاشتراكية يمكن تحقيق العدالة الاجتماعية وحماية الحقوق المدنية. [١]

لم يغفل عن حقيقة أن كل شيء في المجتمع البشري والثقافة هو في نهاية المطاف عمل الأفراد، وكان يمتلك قدرة نادرة لتوضيح جوهر أفكارهم وعزل خصائص الشخصية التي جعلت اكتشافهم أو تطورهم ممكنًا. فعلى سبيل المثال إسحاق نيوتن (ت١٧٢٧) ويوهان نيس كيبلر(ت١٦٣٠) Johannes Kepler وماري كوري –Marie Skłodowska Curie (ت ١٩٣٤) وماكس بلانك Max Planck (ت ١٩٤٧) وبول لانجفين Paul Langevin(ت ١٩٤٦). ففي أفضل التقاليد الأنثروبولوجية ، لم ينظر إلى اليهود على أنهم عرق، وعزا مساهمتهم العلمية والفنية غير المتكافئة إلى الحضارة كنتاج لطابعهم، وتقليد يعطي أعلى قيمة للعقلانية والإبداع. وعزا معاداة السامية إلى التكفير عن فداء ورأى في الصهيونية أملاً في تجديد الثقافة المميزة للشعب اليهودي والحفاظ عليها.[٢]

على الرغم من أنه وضع البنية التحتية التي أدت إلى إطلاق الطاقة الذرية أكثر من أي عالم آخر، إلا أنه قال: "لا أعتبر نفسي أبا لإطلاق الطاقة الذرية كان دوري فيها غير مباشر تمامًا. لم أفعل، في الواقع ، توقع أنه سيتم إصداره في وقتي. كنت أعتقد فقط أنه كان ممكنًا من الناحية النظرية. أصبح عمليًا من خلال الاكتشاف العرضي للتفاعل المتسلسل، ولم يكن هذا شيئًا يمكن أن أتخيله مسبقًا ... وقد قدمت ليز مايتنر (ت١٩٦٨م) Lise Meitner تفسيرا صحيحا، ثم هربت من ألمانيا لتصل فيما بعد تلك المعلومات لنيلز هنريك دافيد بور(ت١٩٦٢م) Niels Henrik David Bohr. وقد انضم أينشتاين إلى علماء آخرين حتى يحث الرئيس روزفلت على بدء العمل فى إنتاج قنبلة ذرية لئلا يزودها العلماء الألمان بهتلر أولاً. [٣] وحدث لأينشتاين بعدما ألقيت القنبلة الذرية نوعا من الصدمة فلم يكن قادرا على مواجهة الصحافة والإعلام ممن كانوا يطرقون منزله، بل رفض أن يصرح بأي تصريحات لجاره آرثر هايس سولزبرجر(ت ١٩٦٨) Arthur Hays Sulzberger الذي ينشر صحيفة نيويورك تايمز.

وقد تحدث أينشتاين هذا الموضوع مع الصحافة بعدما ألقيت القنبلتين، عندما قرر الرحيل عن منزله الصيفي والنقطة التي أكد عليها في حديثه هي أن القنبلة عززت دعمه الطويل لإنشاء حكومة اتحادية عالمية، وقال: «إن الخلاص الوحيد للحضارة وللجنس البشري يكمن في

إنشاء حكومة عالمية. وإذا استمرت الدول المستقلة في التزود بالأسلحة وفي الاحتفاظ بقوتها العسكرية وأسرارها فإن ذلك سيؤدى إلى حرب عالمية جديدة"(٤)

لم يختلف مسعى أينشتاين في العلم عن مسعاه في السياسة العالمية؛ فقد سعي للتوصل إلى مجموعة موحدة من المبادئ يمكنها أن تخلق النظام من الفوضى، ورأى أن النظام القائم آنذاك من المحتم أن يتسبب في مزيد من الحروب فهو مبني على دول مستقلة لها قواتها العسكرية الخاصة وأيدولوجياتها المتضاربة ومصالحها القومية المتصارعة. لذا فقد نظر إلى وجود سلطة عالمية على أنها مسألة واقعية وليست مثالية؛ فكرة عملية وليست ساذجة.

وظل متحفظا خلال سنوات الحرب إذ كان لاجئا لدى أمة استخدمت قوتها العسكرية لأهداف نبيلة وليست أهدافا قومية، إلا أن نهاية الحرب غيرت كل شيء مثلما تغير الحال مع إلقاء القنابل الذرية. وقد أدت الزيادة في القدرة التدميرية للأسلحة الهجومية إلى زيادة متساوية في الحاجة إلى إيجاد كيان عالمي يوفر الأمن، وعندئذ آن الأوان كي يعود إلى المجاهرة بآرائه السياسية من جديد. (٥)

وطوال السنوات العشر المتبقية من حياته، برزت لديه أفكارا كثيرة كان من أهمها سعيه لإنشاء كيان حاكم موحد للعالم، وكذلك محاولته للتوصل إلى نظرية المجال الموحد التى يمكن من خلالها أن يسيطر على جميع القوى الموجودة في الطبيعة. وعلى الرغم من اختلاف كلا الهدفين في عدد من الأمور فإنهما عكسا ميله إلى وجود نظام يتمتع بأشد قدر من القوة.. وبالإضافة إلى ذلك، فإن كلا الهدفين سيعبران عن استعداد أينشتاين لأن يكون من غير الممتثلين للأعراف والعادات، وأن يعترض بطريقة سلمية على الاتجاهات والمواقف السائدة.

وعقب إلقاء القنبلتين بشهر واحد، فقد وقع مجموعة من العلماء على بيان يطالبون فيه بإنشاء مجلس للأمم للتحكم في الأسلحة الذرية. فاستجاب أينشتاين بخطاب أرسله إلى "روبرت أوبنهايمر Robert (ت١٩٦٧) Oppenheimer" الذي قاد بنجاح الجهود العلمية التي أدت لصنع القنبلة في "مختبر لوس ألاموس Los Alamos Laboratory"، وقال أينشتاين إنه سعد كثيرا بوجهات النظر التي تضمنها البيان، على أنه انتقد التوصيات السياسية ووصفها بأنها «ليست كافية» لأنها تبقي على الأمم ذات السيادة باعتبارها قوي مطلقة، واستطرد: «إن

من غير المعقول أن يكون هناك سلام دون وجود منظمة حكومية حقيقية تخلق القانون وتفرضه على الأفراد في علاقاتهم الدولية.» [٦]

أوضح روبرت أوبنهايمر بلباقة أن «التصريحات التي نسبتها لي ليست تصريحاتي.» لقد كتبتها مجموعة أخرى من العلماء. وعلى الرغم من ذلك فإنه عارض حجة أينشتاين المطالبة بإنشاء حكومة عالمية تتمتع بكافة القوى: «أظهر تاريخ هذه الأمة خلال الحرب الأهلية مدى صعوبة إنشاء سلطة اتحادية في ظل وجود اختلافات عميقة فى القيم المجتمعية والتى حاولت السلطة أن تحدث بينها عملية اتحاد وتكامل. وهكذا أصبح أوبنهايمر أول من استخف بأينشتاين لكونه مفرطا في المثالية – الرأي الذي شارك أوبنهايمر فيه كثير من الواقعيين بعد الحرب. وبالطبع يمكن للإنسان أن يدحض حجته بالقول إن الحرب الأهلية أظهرت في بعض الفترات الخطيرة نظرا لافتقاد السلطة الاتحادية التى يمكن أن تحل محل السيادة العسكرية للولاية عندما يكون هناك اختلافات في القيم بين الولايات الأعضاء في الاتحاد. [٧]

وما تصوره أينشتاين هو «سلطة» أو «حكومة» عالمية تحتكر القوة العسكرية. وقد أطلق عليها «كيان فوق القوميات» بدلا من «كيان دولي» لأن سلطتها ستكون أقوى من سلطة الدول الأعضاء ولن تكون مجرد وسيط بين الأمم ذات السيادة، وشعر أينشتاين أن الأمم المتحدة، التي تأسست في أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٤٥ لا تفي بهذه المعايير. [٨]

وعلى مدى الشهور القليلة التالية صاغ أينشتاين مقترحاته في سلسلة من المقالات والمقابلات الشخصية، ولعل أهمها في هذا السياق هي تلك الخطابات المتبادلة بينه وبين ريموند جرام سوينج Raymond Gram Swing المذيع في شبكة أيه بي سي ABC، ودعا أينشتاين سوينج لزيارته في برينستون، وكانت نتيجة هذه المقابلة مقالة كتبها أينشتاين – كما أخبر سوينج – نشرت في صحيفة، بعد استخدام القنبلة الذرية في هيروشيما وناجازاكي، كان أينشتاين من بين أول من حث على عدم استخدامها مرة أخرى، وأصبح مدافعًا بليغًا عن الحكومة العالمية، والتي اعتبرها البديل الوحيد للسيادة، والنزعة العسكرية والحروب الحتمية وذلك وفقا لعدد من الحجج التى ساقها لذلك لقضية الحكومة العالمية وهى: [٩]

(١) "نحن العلماء، الذين كانت وجهتهم المأساوية هي المساعدة في التركيز على أن أساليب الإبادة الموصوفة بأنها أكثر بشاعة وفعالية، إذ يجب علينا أن نأخذ في الاعتبار أن واجبنا

الجاد والمتسامي هو القيام بكل ما في وسعنا في منع استخدام هذه الأسلحة من أجل الأغراض الوحشية التي تم اختراعها من أجلها ".

(٢) "لقد أحدث بناء القنبلة الذرية أثرًا على أن كل الناس الذين يعيشون في المدن مهددون، في كل فى كل مكان وزمان بالدمار المفاجئ، ولا شك أن هذا الشرط يجب أن يُلغى إذا أراد الإنسان أن يكون مستعدا بجدة للعمل على التقليل من خطر القنبلة الذرية على البشرية جمعًا .. "

(٣) "طالما كان على الدولة الفردية، على الرغم من إدانتها الرسمية للحرب، أن تنظر في إمكانية الانخراط في الحرب، يجب عليها التأثير على مواطنيها – وشبابها على وجه الخصوص – وتثقيفهم بطريقة تجعلهم من السهل أن يكونوا جنودا أكفاء ..".

(٤) "لقد عانت البلاد التى قامت بتفجير القنبلة الذرية ومع احتكاره لها، يعاني من ناحية أخرى ، من حيث أنه يفشل في العودة علنًا إلى المعايير الأخلاقية للحرب التي كانت مقبولة رسميًا عن الحروب السابقة"

(٥) "لقد خرجنا من حرب كان علينا فيها قبول المعايير الأخلاقية المتدنية للعدو، ولكن بدلاً من الشعور بالتحرر من معاييره، والتحرر من قدسية الحياة البشرية وسلامة غير المقاتلين، فنحن في الواقع جعلنا من المعايير السلبية للعدو في الحرب الأخيرة هي هى المعايير ف وقتنا الحاضر، وبالتالي فإننا نبدأ في اتجاه حرب أخرى..".

(٦) "أنا أدافع عن حكومة عالمية لأنني مقتنع بأنه لا توجد طريقة أخرى ممكنة للتخلص من الخطر الذى تسبب فيه الإنسان بأفعاله وقد وجد نفسه فيها — الأخطار– لذا يجب أن يكون الهدف هو تجنب الدمار الشامل باعتباره هدفًا مهمًا ينبغى العمل على التوصل إليه وتحقيقه."

قبل عهد ريموند مكارثي (ت١٩٥٧م) Joseph McCarthy بوقت طويل، وفي اجتماع عام ١٩٣٦ للاحتجاج على إقالة أساتذة الجامعات للتعبير عن آرائهم، وقد قال أينشتاين:"دعونا نكون حذرين بلا كلل، لئلا يقال لاحقًا عن النخبة المثقفة في هذه الأرض: وبدون صراع ، استنزفوا بالتأكيد الإرث الذي ورثه لهم أجدادهم؟ وهو تراث لم يكونوا جديرين

به، بالتأكيد، يمكننا أن نقول عن آينشتاين ما قاله عن المهاتما غاندي: "الأجيال القادمة ، قد تكون ، نادرًا ما تصدق أن مثل هذا من لحم ودم سار على هذه الأرض. [١٠]

ثانيا: لماذا الاشتراكية؟

هل من الملائم أن يعبر شخص غير خبير في القضايا الاقتصادية والاجتماعية عن آرائه بشأن موضوع الاشتراكية؟ أعتقد ذلك لعدد من الأسباب منها النظر في تلك المسألة من وجهة نظر المعرفة العلمية. قد يبدو أنه لا توجد اختلافات منهجية أساسية بين علم الفلك والاقتصاد: يحاول العلماء في كلا المجالين اكتشاف قوانين الاستحسان العام لمجموعة محدودة من الظواهر من أجل جعل الترابط بين هذه الظواهر مفهوما بشكل واضح قدر الإمكان، لكن في الواقع توجد مثل هذه الاختلافات المنهجية. يصعب اكتشاف القوانين العامة في مجال الاقتصاد بسبب الظروف التي غالبا ما تتأثر فيها الظواهر الاقتصادية بالعديد من العوامل التي يصعب جدا تقييمها بصورة منفصلة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الخبرة التي تراكمت منذ بداية ما يسمى بالحقبة المتحضرة من تاريخ البشرية – كما هو معروف جيدا – قد تأثرت إلى حد كبير وقيدت بأسباب ليست بأي حال من الأحوال ذات طابع اقتصادي خالص. [١١]

على سبيل المثال، فإن العديد من الدول كان تاريخ تأسسها على الغزو .. فأقامت الشعوب المحتلة نفسها، قانونيا واقتصاديا، بوصفها الطبقة المتميزة في البلد المغتصب وقد احتكروا لأنفسهم ملكية الأرض بل وعينوا كهنوتا من بين صفوفهم. فقام الكهنة، المسيطرون على التعليم، بالتقسيم الطبقي في المجتمع إلى مؤسسة دائمة وأنشأوا نظاما من القيم يسترشد به الناس من الآن فصاعدا، إلى حد كبير دون وعي، في سلوكهم الاجتماعي. [١٢]

ولكن إذا كان الاقتصاد لا يستطيع الخروج من الفوضى دون هذا السلوك المنظم الواعي، فمشاكل السياسة العالمية هى أيضا فى احتياج لذلك السلوك الواعى المنظم، ولحسن الحظ لم يعد هناك الكثير من الساسة الذين يعتقدون أن أفعال العنف، في صورة الحرب، هي الوسيلة المفضلة للبشرية للقضاء على هذه المشاكل، ولكنهم ليسوا على المستوى المطلوب من الحزم للدفاع وحسن التصرف أثناء الحروب، فالأثر المريض لبقايا الماضي، علينا أن نفكر بوضوح

في كل هذا، وأن نتحلى بالشجاعة للمساهمة الفعالة بحيوية، وبالطريقة الأكثر فاعلية لتحقيق هذه الأهداف النبيلة.

لكل رافض للحرب عليه أن يتخلى عن مصالحه الفردية، والعمل لصالح البشرية جمعا، ومن ثم عليه أن يكون مستعدا لأى صراعات قد تحدث، ومن ثم أن يلجأ إلى التحكيم العالمي، وعليه أيضا العمل على نزع سلاح جميع الدول، كما أشارت معاهدة فرساي Treaty of Versailles، ولكن يجب أن نعترف أنه لن يكون هناك تقدم بهذا المعنى، إذا لم يضع الإنسان العالمى حدا للأعمال العسكرية والعدائية.

أبان السنوات الأخيرة عقدت عددا من المؤتمرات لنزع السلاح إلا أن جميعها قد فشلت، ولعل هذا الفشل لم ينجم فقط عن سياست بعض رجال الدولة الطموحين ودسائسهم، ولكنه جاء أيضا بسبب اللامبالاة، وضعف البشر في جميع البلاد.

إذا لم نفعل ما علينا القيام به، فإنا سنقضي على كل ما تركه لنا أجدادنا من خيرات.[١٣] ونظرا لانعدام الوعى والمسؤولية لدى أبناء الشعب الأمريكى فإنهم فكروا فى :

" تدمير أوروبا سببه غباء وشراسة سكانها، فما زرعه الأوروبيين من بذور منذ البداية قد نمت بشكل بائس في الأرض الأوربية الجدباء، نحن أقوياء بما فيه الكفاية، وواثقون من أنفسنا، ولا نريد التدخل من جديد بهذه السرعة في شؤون العالم الخارجي"!.

فالتفكير بالطريقة السابقة يتصف أصحابه بقصر النظرة الاستشرافية! فأمريكا ليست بريئة من بؤس أوربا، لأن استيرادها لبعض الأفكار والأسس الإدارية الخاصة بالنظم الاقتصادية إنما يعجل بإنهيار اقتصادي، ومن ثم النظام الأخلاقي في أوربا، فهي بهذه الحالة تساهم في انحطاط وضعف الأخلاق السياسية والثقافية المشبعة بروح الانتقام، واليأس، هذه الروح لن تتوقف على أبواب "أمريكا"، وهنا أستطيع أن أقول إن الحرب ستمتد، وتمتد.. انظروا حولكم، واحذروا !

لا حاجة أن نضيف شيئاً: فمؤتمر السلام يمثل فرصة اخيرة قد صنعتها لنا الحضارة للجميع، حتى وإن كانت الأنظار تتجه نحو الأقوى تأثيرا [١٤]

لكن إذا جاز التعبير بأن التقليد التاريخي هو أنه لم نتغلب في أي مكان على ما اسماه ثورستين فيبلين Thorstein Veblen "مرحلة النهب" للتنمية البشرية الحقائق الاقتصادية الملحوظة التي تنتمي إلى تلك المرحلة وحتى القوانين التي يمكن أن نستخلصها منها لا تنطبق على

المراحل الأخرى. نظرا لأن الهدف الحقيقي للاشتراكية هو التغلب على نهب البشرية ، ذلك لأن العلوم الاقتصادية في حالتها الحالية لا يمكن أن تلقي الاهتمام بالنظام الاشتراكى مستقبلًا.

ثانيا، إن النظم الاشتراكية تهدف إلى غايات ومصالح اجتماعية وأخلاقية فى عمومها، إلا أنه يبدو أن العلم لا يمكن أن يخلق غايات، بل وحتي لا يستطيع أن يغرسها في البشر؛ يمكن للعلم، على الأكثر، أن يوفر الوسائل التي يمكن من خلالها تحقيق غايات معينة. لكن الغايات نفسها تصممها شخصيات ذات مثل أخلاقية سامية يتم تبنيها وتنفيذها من بعض البشر ممن يتصفون بالخبرة الواعية فى إدارة وتطوير المجتمعات.

ولهذه الأسباب، ينبغي ألا نبالغ في تقدير العلم والأساليب العلمية عندما يتعلق الأمر بمشاكل بشرية؛ ومن ثم لا ينبغى الاعتماد كليا على الخبراء باعتبار أن لهم الحق في التعبير عن أنفسهم بشأن المسائل التي تؤثر على تنظيم المجتمع.(١٥)

ليس هناك مبررا يدعو الرجل العادى للتعبير عن رأيه فيما يخص الأحوال الاقتصادية الراهنة ذلك الرأى الذى قد يكون أكثر احباطا من آراء الخبراء فيما يتعلق بهذا الموضوع، وهنا يشير أينشتاين إلى أن رأيه فى هذا المجال لم يعد جديدا وليس فكرة لرجل أمن ومستقل الفكر على حد السواء لان لا يثقله تحيز طبقى أو وطنى فهو لا يستهدف سوى خير البشرية، وما يناسب الوجود الإنسانى المتجانس، وإذا كنت أبدو هنا وفيها أكتب بمظهر الواثق من صدق ما يقول والذى غايته سهولة التعبير، وليس مصدره ثقة شخصية أو اعتقادا في عصمة أفكار وتصورات لمشكلات هي في الواقع غابة في التعقيد. (١٦)

بدت هذه الأزمة مختلفة تمام الاختلاف عن الأزمات السابقة عليها إذ نشأت وفقا لأساس وظروف جديدة نبعت من التقدم السريع في وسائل الإنتاج، إذ لم نعد الأن بحاجة لإنتاج السلع الاستهلاكية اللازمة إلا إلى جزء يسير من الأيدي العاملة في العالم وإذا سلكنا سبيل ترك الأمور على هذا الحد أدى ذلك كله إلى ظهور وازدياد البطالة.

ونجد ان غالبية الناس يضطرون للعمل للحصول على أجورهم لتحصيل مطالب الحياة، ولذا فإن كان هناك مصنعان ينتجان سلعة واحدة وتساوت كل ظروفهما فإن أيها سيستطيع إنتاج هذه السلعة بتكلفة أقل لو أنه استغل عددا أقل من العمال أي لو جعل العامل الواحد يعمل أطول وأقصى ما تسمح به الطبيعة البشرية ويتبع هذا حتما أنه بوسائل الإنتاج كما هي اليوم لن نستطيع أن نستغل إلا جزءا يسيرا من الأيدي العاملة المتوفرة وبينما يشتد الطلب على

هذا الجزء اليسير نجد البقية الأخرى مقصاة عن عجلة عملية الإنتاج ، وهذا يؤدي إلى هبوط في المبيعات والأرباح ثم إلى توقف الأعمال مما يؤدي إلى زيادة جديدة في التعطل وتزعزع الثقة فى إدراة النظام الصناعى كما يصحبه انكماش مساهمة أفراد المجتمع في المصارف التي تساند الأعمال وأخيرا تعجز المصارف نتيجة لسحب الودائع المفاجئ وهكذا تتوقف عجلة الصناعة تماماً. ولقد عزيت الأزمة أيضا إلى أسباب أخرى سنتناولها فيما يلي : ازدياد الإنتاج عن معدل حاجة المجتمع ومن هنا يجب التفرقة بين أمرين: الأول الزيادة الحقيقة للإنتاج، والثانى زيادة الظاهرية الإنتاج، وتقصد بزيادة الإنتاج الحقيقية إنتاج من الضخامة بحيث يفوق الطلب وهذا ينطبق على السيارات والقمح في الولايات المتحدة في الظروف الراهنة ولو أنه أمر مشكوك فيه. ولكن الناس يقصدون عادة بعبارة "زيادة الإنتاج" الحالة التي تنتج فيها من سلعة معينة أكثر مما يمكن بيعه في الظروف القائمة، ويمكننى تسمية ذلك بأنه زيادة إنتاج ظاهرية، وفي هذه الحالة لا ينقصنا الطلب على السلعة أكثر من تحقيق قوة شرائية مستهلكة، ومثل هذه الزيادة الظاهرية في الإنتاج قد تكون سببًا آخر للأزمة، وعلى ذلك لا تصلح لأن تكون تفسيرا، ومن هنا فأولئك الذين يحاولون أن يجعلوا زيادة الإنتاج مسئولة عن الأزمة الراهنة قد غلطوا فى ذلك.(١٧)

إن الاضطرار إلى دفع التعويضات أمر يثقل كاهل الدول المدينة واقتصادياتها ويضطرها هذا كله إلى محاولة تخفيض قيمة عملتها، ولا شك أن ذلك له ضررا كبيرا على الدول الدائنة، إلا أن الأزمة في الولايات المتحدة بالرغم من الحواجز الجمركية الباهضة، والتى ثبت أن نقص رصيد الذهب في هذه الدول هو نتيجة دفع تلك التعويضات، ومن ثم لا يمكن أن يكون هذا حجة تدعو إلى وقفها، ولكن هذا لا يمكن أن يبرر لنا أسباب الأزمة الاقتصادية العالمية.

إن إقامة الحواجز الجمركية الجديدة بالإضافة إلى زيادة تكاليف التسلح للجيوش وعدم توفر الأمن السياسي نتيجة خطر الحرب الكامن، كل هذه الأشياء تجعل الموقف في أوربا سيئًا جدا دون أن تؤثر حقيقة على أمريكا ومظهر الأزمة في هذه الأخيرة يوضح أن هذه الأمور لا يمكن أن تكون أسبابها الرئيسية.

إن فشل القوانين الصينية والروسية فى التعامل مع تلك الأزمات، وحتى تلك الضربة القادمة التي وجهت إلى التجارة العالمية لا يمكن أن يكون لها أدنى تأثير على أمريكا، وعلى ذلك فلا يمكن أن تكون السبب الرئيسي للأزمة. (١٨)

النهوض الاقتصادي للطبقات الدنيا عند العرب : حتى لو فرضنا أن هذا الأمر حقيقة واقعة فإن أثره لا يمكن أن يكون إلا ندرة السلع لا الوفرة الزائدة فيها.

إنني متأكد من أمر واحد هو أن التقدم الصناعي فى حد ذاته قد يخلص الجنس البشري من جزء كبير من ميناء الحياة، وهو نفسه أيضا سببًا رئيسيًا للأزمة العالمية. ولذا فإن بعض الخبراء الذى يزعمون أنهم يمتلكون من القدرة والجدية على محاوبة هذا الانظمة الصناعية المستحدثة، فلا شك أن هذا غباء واضح، ولكن كيف السبيل إلى الخروج من هذا المأزق؟

لو أننا استطعنا بطريقة ما أن تدبير بعض الأمور ومنها العمل على هبوط القوة الشرائية لأفراد المجتمع وجعلها مقيسة بمقياس السلع وبدون حد أدنى لهذا، ذلك لأن توقف وهبوط الأداء فى القطاع الصناعى الذي نعاني الأن وطأة الشديد سيصبح مستحيلاً. (١٩)

وأبسط الطرق المنطقية لتحقيق هذا كله ولكنه مع ذلك أشد جرأة على العمل وفقا له، أنه ما يسمى إنه بالاقتصاد الموجه بنحو كلي على إنتاج السلع وتوزيعها من قبل القطاع العام، وهذا ما تحاول روسيا أن تتجه إليه فى الوقت الحالى، وستتوقف على النتائج التي ستسفر عنها هذه التجربة المفروضة أمور كثيرة. ومن هنا هل يمكن إنتاج السلع تبعا لذلك النظام السابق، على العكس من نظام يقوم انتاجه على مجال واسع فيه من الحرية مثل القطاع الخاص او المشروعات الفردية ..؟ هل يستطيع هذا النظام أن يحتفظ بتوازنه على الاطلاق بدون ذلك القسر الذي لازمه حتى الآن والذى يرفضه الغربيين ..؟ ألا يمكن أن يمنح مثل هذا النظام الاقتصادي الجامد المتمركز إلى حماية نفسه ومقاومة التجديدات النافعة ... ؟ يجب على أي حال أن لا نسمح لمثل هذه الاعتراضات بأن تدفعنا إلى التحيز أو أن تمنعنا من تكوين رأي موضوعي محايد . (٢٠)

ونرى أن الطرق التي تحترم التقاليد والعادات القائمة، فإنها لا تتعارض مع الغايات التي ننشدها. كما أنني لا أعتقد أن التحول دفعة واحدة نحو التخطيط الحكومي للاقتصاد سيكون مفيدا من ناحية الإنتاج . فلابد أن يترك للمشروعات الخاصة مجالا من النشاط طالما أن عمليات التكتل الصناعي نفسها لم تستبعد هذه المشروعات.

لست أعتقد أن مواجهة الأزمات العالمية الراهنة يكمن في معرفة دقائق الطاقة المنتجة والاستهلاك لأن هذه المعرفة قد لا تتوفر في الأغلب إلا متأخرة جدا ، وفوق ذلك يبدو لي ان سبب المشكلة في ألمانيا هو ضعف القوة الشرائية لدى جزء كبير من السكان – أكثر منه تضخم

الانتاج الألي – ذلك الجزء من السكان الذي استبعده من العملية الإنتاجية في اثناء تطوير الصناعة وتحسين وسائلها. [٢١]

ونرى أن قاعدة الذهب تنطوي على مسألة خطيرة أن النقص في رصيده يمكن أن يؤدى تلقائيا لانكماش الائتمان ونقص في العملة المتداولة، مما ينعكس ذلك الخطر الأكبر على الأسعار والأجور معا وعدم التلاءم مع هذا الوضع سريعا.

ولمواجهة هذا الأزمات يمكن إتباع بعض النقاط هى:

١– تخفيض ساعات العمل بصفة تدريجية بالنسبة إلى كل قطاع من قطاعات الصناعة حتي نتخلص من البطالة مع تثبيت الحد الأدنى للأجور لكي نلائم بين قدرة الجماهير على الشراء وبين كمية البضائع المتوفرة.

٢– السيطرة والتحكم على قيمة النقد المتداول وكذلك حجم الائتمان بحيث يعمل هذا وذاك على ثبات الأسعار[٢٢]

يبدو لي أن المشكلة الأساسية كامنة فى الحرية غير المشروطة التى سادت سوق العمل العالمى والتى هى مرتبطة ومتداخلة مع التقدم الفائق في وسائل الإنتاج، إن تلبية احتياجات العالم حاليا لا تستلزم كل العمالة المتوفرة لدينا الآن. والنتيجة الحتمية لذلك هي البطالة ثم التنافس غير السليم بين العمال وكلاهما يحمد القوة الشرائية وهكذا يختل النظام الاقتصادي كله بشكل لا يطاق .

ذكر أينشتاين إن الاقتصاديون يقولون:" إن كل توفير في العمل يقابله زيادة في الطلب ولكني لا أعتقد ذلك . وحتى لو كان صحيحا فالعوامل آنفة الذكر سوف تؤدى دائما إلى تخفيض مستوى المعيشة لجزء كبير من الجنس البشري الى تربية غير طبيعية". [٢٣] ونوافق على ما ذهب إليه أينشتاين بأنه لا بد من اتخاذ الخطوات اللازمة نحو جعل اشتراك الشباب ممكنا وضروريا في عملية الانتاج واستبعاد كبار السن من بعض مناطق العمل غير المناسبة لهم لقدراتهم على أن يحصلوا بدلا منه على دخل معين على أساس أنهم قد قاموا بما يكفي من الأعمال التي عدها المجتمع منتجه.

وأعتقد أنه ينبغي علينا تحاشي تقلبات قيمة النقد عن طريق استبدال قاعدة الذهب بأخرى تقوم على مجموعات معينة من البضائع نختارها تبعا للظروف الاستهلاك ولقد اقترح جون

مينارد كينزohn Maynard Keynes (ت ١٩٤٦) ذلك من قبل . وفي ظل هذا النظام يمكن السماح بدرجة معينة من التضخم مقارنة بالموقف النقدي الراهن هذا طبعا إذا كنا مطمئنين إلى أن الدولة ستحسن استخدام العائد الذي ستجنيه من وراء ذلك. (٢٤)

دعنا نتأمل أولا المسألة من وجهة نظر المعرفة العلمية : قد يبدو عند النظرة السطحية أنه ليس ثمة فروق منهجية أساسية بين علم الاقتصاد من ناحية والعلوم الأخرى كالفلك مثلا من الناحية الأخرى فالعلماء في الاقتصاد كما في العلوم الأخرى يهدفون إلى اكتشاف قوانين مقبولة بوجه عام تنظم مجموعات محلية من الظواهر بقصد اظهار علاقات الترابط بين هذه الظواهر جميعها وذلك بصورة مفهومة فها كافي الوضوح بقدر المستطاع ولكن الحقيقة التي تكشف عند الفحص الدقيق، هي أن مثل هذه الفروق المنهجية قائمة فعلا . فاكتشاف القوانين العامة في مجال الاقتصاد مثلا أمر بالغ الصعوبة وذلك راجع إلى ظرف خاص هو أن الظواهر الاقتصادية التي نكتشفها عن طريق المشاهدات غالبا ما تخضع لتأثير عوامل متعددة يصعب تقدير كل منها على حدة . وفوق ذلك كلنا نعلم جيدا أن التجربة التي تجمعت لدينا منذ بدء فترة الحضارات في تاريخ الإنسان قد تأثرت تأثرا عميقا وتشكلت تبعا لمؤثرات ليست بحال من الأحوال اقتصادية بحته من حيث جوهرها فمثلاً قامت معظم دول التاريخ الكبرى على الغزو وكونت الشعوب الفاتحة من نفسها – شرعا واقتصاديا – طبقة ممتازة استحوزت على امتيازات خاصة في البلاد التي فتحتها فاغتصبت لأنفسها مثلا احتكار ملكية الأرض كما أقامت نظاما كاملا من الكهانة كان وقفا عليها وهؤلاء الكهنة جعلوا انقسام الطوائف في المجتمع عن طريق سيطرتهم على أدوات التعليم ووسائله تكوينا دائما وارسوا قواعده حتى أصبح تقليدا راسخا . كما خلقوا مجموعة متكاملة من القيم كانت تتسلط على سلوك الجماهير الاجتماعي بطريقة لاشعورية إلى حد كبير. (٢٥)

والأن حتى بعد أن مضي التقليد التاريخي وعفا عليه الزمن بحيث دخل في ذمة التاريخ مازال البشر في كل مكان من التأخر الاجتماعي لدرجة أنهم لم يتغلبوا بعد على ما يسميه ثورنشتين فبلن طور "الاستلاب" والحقائق الاقتصادية التي تقع الآن تحت ملاحظتنا تتعلق بهذا الطور وحتى القوانين التي يمكن أن نشتقها من هذه المشاهدات لا يمكن تطبيقها على الأطوار الأخرى من أطوار المجتمع . ولما كان الهدف الحقيقي للاشتراكية هو بالدقة التغلب على

"الأستلاب" ثم الانتقال قدما بالمجتمع الإنسان إلى ما يلى هذا الطور في سلم الأرتقاء لذلك نجد أن علم الاقتصاد كما هو الآن لا يلقى إلا ضوءا خافتا على المجتمع الأشتراكى . [٢٦]

ثالثا: الإنسان في ظل الإشتراكية:

الإنسان في نفس الوقت، كائن اجتماعي وككائن انفرادي، يحاول حماية وجوده ووجود المقربين منه، لإشباع رغباته الشخصية، وتطوير قدراته الفطرية. وككائن اجتماعي، يسعى إلى كسب اعتراف ومودة إخوته من البشر، والمشاركة في ملذاتهم، وتعزيتهم في أحزانهم، وتحسين ظروف حياتهم. ووجود هذه المساعي المتنوعة والمتضاربة في كثير من الأحيان هو وحده الذي يفسر الطابع الخاص للإنسان، كما يمكنه أن يحدد إلى أى مدى يمكن للفرد أن يحقق توازنا داخليا ويمكن أن يسهم في رفاهية المجتمع. من المحتمل جدا أن تكون القوة النسبية لهذين الدافعين، بشكل رئيسي، ثابتة عن طريق التوارث. لكن الشخصية التي تظهر أخيرا تتشكل إلى حد كبير من البيئة التي يجد فيها الإنسان نفسه أثناء تطوره، وبنية المجتمع الذي نشأ فيه، وتقاليد ذلك المجتمع، وتقييمه لأنواع معينة من السلوك.. إن مفهوم "المجتمع" المجرد يعني بالنسبة للفرد البشري مجموع علاقاته المباشرة وغير المباشرة مع معاصريه ومع جميع شعوب الأجيال السابقة. فالفرد قادر على التفكير والشعور والسعي والعمل بنفسه ؛ لكنه يعتمد كثيرا على المجتمع – في وجوده الجسدي والفكري والعاطفي – بحيث يستحيل التفكير فيه، أو فهمه، خارج إطار المجتمع. إن "المجتمع" هو الذي يوفر للإنسان الطعام والملبس والمنزل وأدوات العمل واللغة وأشكال الفكر ومعظم مضمون الفكر ؛ أصبحت حياته ممكنة من خلال العمل وإنجازات الملايين من الماضي والحاضر الذين يتخفون جميعا وراء الكلمة الصغيرة «المجتمع». [٢٧]

وإضافة لما سبق ذكره فإن الاشتراكية تستهدف تحقيق غايتين هما الااجتماعية والأخلاقية معًا، إلا أن العلم كعلم لا يستطيع أن يساهم فى تحقيق تلك الغايات تماما اذ أن أقصى ما يستطيعه العلم هو أن يقدم الوسائل التي قد نبلغ بواسطتها هذه الغايات وانما يلم بهذه الغايات رجال لهم مثل عليا أخلاقية رفيعة تعتنقها – إذا لم تولد ميتة بل حية تفيض نشاطا – وتطبقها الكثرة من البشر الذين يحددون ويرسمون بطريقة واعية معالم التطور البطيء للمجتمع. .

لهذه الأسباب يجدر بنا أن نكون على حذر في تقدير ما للعلم والوسائل العلمية عندما تناول المشاكل الإنسانية. ويجب أن لا نخطئ فنتوهم أن الخبراء وحدهم هم الذين يحق لهم الإدلاء بآرائهم في المسائل المتعلقة بتنظيم المجتمع . (٢٨)

لقد ارتفعت أصوات عدة منذ فترة من الزمن تنادي بأن المجتمع الإنساني يمر الأن بأزمة حادة وأن توازنه قد تحطم تحطيماً بالغا ومن سمات هذا الوضع أن ينتاب الأفراد شعور باللامبالاة أو حتى بالعداء تجاه المجموعة التي ينتمون إليها سواء كبيرة كانت أو صغيرة. ولإيضاح ذلك يمكننى أن أذكر تجربة قد مررت بها حيث فى أحد الأيام تجاذبت الحديث مع رجل ذكي وموهوب بخصوص التهديد وقيام حرب جديدة، حول وهذا الأمر فى حد ذاته الأمر أعتبره خطرا وتهديد على البشرية كلها. وأضف إلى ذلك أن تنظيما فوق قومي يمكن أن يكون درعا واقيا من هذا الخطر وعندما بلغنا هذا الحد من الحديث قال لي الزائر الكريم بكل هدوء وبرود ولماذا تعترض بهذه الشدة على اختفاء الجنس البشري؟ لذا يقول "أني اثق أن أحدا لم يستطيع منذ أقل من قرن مضى التصريح بشئ من هذا القبيل. ذلك لأن هذا إنما كان من رجلا كافح بشكل عبثى لكى يصل إلى اتزان داخلي دونما أمل فى تحقيقه للنجاح فهذا الأمر إنما عن تعبير وحدة مؤلمة وانعزالية يعاني منها الكثيرون في هذه الأيام فما هو السبب؟ وهل هناك مخرج منها.

من السهل أن نلقى مثل هذه الأسئلة ولكنه من العسير أن نجيب عليها، ومع ذلك فلا مناص من محاولة الإجابة كأحسن ما أستطيع ولو أنني أدرك تماما أن أحاسيسنا ومساعينا غالبا ما تكون متعارضة وأنه لا يمكن التعبير عنها تعبيرا سهلا بسيطا . (٢٩)

أن الإنسان كائن اجتماعي وانعزالي معًا فهو ينزع إلى أن يحمي وجوده شخصيا ووجود الأقربين إليه وإلى أن يشبع رغباته وأن ينمى قدراته الدفينة المغروسة في قرارة نفسه ، وهو ككائن اجتماعي ينزع إلى أن يكسب ود ومحبة أقرانه وأن يشاركهم افراحهم وأن يخفف أحزانهم وأن يحسن أحوال معيشتهم ومجرد وجود هذه النوازع المتنوعة التي كثيرا ما تتعارض ، هو وحده الذي يحدد الطابع الخاص للمرء كما أن ارتباطها النوعي هو الذي يحدد المدى الذي يمكن أن يبلغه الفرد في تحقيق الاتزان الداخلي والإسهام في سلامة المجتمع ورخائه . ومن الممكن جدا أن تكون القوة النسبية لهذين المنزعين أمراً يتحدد أساساً عن طريقة الوراثة ولكن الشخصية التابعة (أي التي تتولد) في آخر الأمر يتكون الجزء الأكبر منها بفعل البيئة التي تحيط بالإنسان أثناء فترة نموه أو بتأثير بناء المجتمع الذي يترعرع فيه أو تقاليد هذا المجتمع وكذلك بمقدار استحسانه وإعجابه بأنواع

خاصة من السلوك. أن هذا التمور المجرد للمجتمع، يعني بالنسبة للفرد جماع علاقاته المباشرة وغير المباشرة، علاقته بمعاصريه وبأسلافه عبر الأجيال الماضية والمرء يستطيع بمفرده أن يفكر ويحس وينتزع وأن يعمل ولكنه يعتمد كثيرا على المجتمع في كيانه المادي والفكري والعاطفي بحيث يستحيل علينا تصور الإنسان أو فهمه خارج إطار المجتمع . فالمجتمع هو الذي يمد الفرد بالمأكل والملبس والمسكن وأدوات العمل واللغة والإمكان والفكر ومعظم مضمونه وحياة هذا الفرد مستحيلة لولا عمل وانتاج ملايين البشر في الماضي والحاضر وهذه الملايين هي التي تختفي وراء هذه الكلمة الصغيرة المجتمع وتنطوي تحت لوائها. (٣٠)

وعلى ذلك يتضح أن اعتماد الفرد على المجتمع حقيقه من حقائق الطبيعة لا يمكن أن تتخطاها مثالنا في ذلك تماما مثال النحل والنمل ومع ذلك نجد أنه بينما تحدد الغرائز الجامدة الموروثة كل خطوات حياة النحل والعمل حتى في أدق تفاصيلها نجد النمط الاجتماعي والعلاقات المتبادلة في حالة جماعات البشر شديدة التنوع وعرضة للتغير فالذاكرة والقدرة على تكوين صلات جديدة وموهبة الاتصال الشفوي جعلت من الممكن حدوث تطورات بين البشر لها في التقاليد والهيئات والمنظمات كما في الأدب والانتاج العلمي والصناعي وفي الانتاج الفني. وهذا يفسر لماذا كان الانسان يستطيع لدرجة ما إن يؤثر على ذات حياته ا بواسطة سلوكه الشخصي كما يفسر كيف يمكن أن يلعب التفكير الواعي وبمجرد الرغبة دورا هاما في هذه العملية. (٣١)

إن الإنسان يحصل عند مولده عن طريق الوراثة على تكوين حيوي (بيولوجي) يجب أن تعتبره ثابتا لا يمكن تغييره بما في ذلك النوازع الطبيعية التي يتميز بها النوع الانسان ويعمل الأنسان إضافة الى هذا أثناء حياته على تكوين ثقافي يقتبسه من المجتمع عن طريق اتصالاته وغيرها من العوامل المؤثرة وهذا الطابع الثقافي هو الذي يتعرض للتغيير مرور الزمن. وهو الذي يحدد إلى درجة كبيرة العلاقة بين الفرد والمجتمع ولقد علمنا وعلم الانسان، الحديث أن الدراسة المقارنة لما يسمى بالثقافات البدائية تظهر أن السلوك الاجتماعي للبشر قد يتفاوت كثيرا فيما بينهم اعتمادا على الأنماط الثقافية السائدة وأنواع التنظيمات المنتشرة في المجتمع وعلى هذه الصخرة ينبغي أن يبنى أولئك الذين يسعون إلى تحسين مقدرات الإنسان آمالهم . فليس محكوما على البشر من ناحية تكوينهم البيولوجي بأن يفني بعضهم بعضا أوان يظلوا رهن مصير رهيب يجلبونه على أنفسهم. (٣٢)

لذلك، من الواضح أن اعتماد الفرد على المجتمع هو حقيقة طبيعية لا يمكن إلغاؤها – تماما كما هو الحال في النمل والنحل. ومع ذلك، في حين أن عملية الحياة الكاملة للنمل والنحل يتم تثبيتها وصولا إلى أصغر التفاصيل من خلال الغرائز الصلبة والوراثية، فإن النمط الاجتماعي والعلاقات المتبادلة للبشر متباينة للغاية وقابلة للتغير. وتتجلى هذه التطورات في التقاليد والمؤسسات والمنظمات ؛ في الأدب ؛ والإنجازات العلمية والهندسية ؛ في الأعمال الفنية. وهذا يفسر كيف يحدث، بمعنى معين، أن الإنسان يمكن أن يؤثر على حياته من خلال سلوكه، وأن التفكير الواعي والرغبة في هذه العملية يمكن أن يلعبا دوراً. (٣٣)

يكتسب الانسان عند الولادة، من خلال الوراثة، تركيباً بيولوجيا يجب أن نعتبره ثابتا وغير قابل للتغيير، بما في ذلك الحوافز الطبيعية التي تميز الجنس البشري. بالإضافة إلى ذلك، خلال حياته، حصل على تركيب ثقافي يتبناه من المجتمع من خلال التواصل ومن خلال العديد من أنواع التأثيرات الأخرى. وهذا التركيب الثقافي هو الذي يخضع، مع مرور الوقت، للتغيير ويحدد إلى حد كبير العلاقة بين الفرد والمجتمع. علمتنا الأنثروبولوجيا الحديثة، من خلال البحث المقارن لما يسمى بالثقافات البدائية، أن السلوك الاجتماعي للبشر قد يختلف اختلافا كبيرا، اعتمادا على الأنماط الثقافية السائدة وأنواع التنظيم السائدة في المجتمع. وعلى هذا الأساس، فإن أولئك الذين يسعون جاهدين لتحسين أوضاع الإنسان قد يعللون آمالهم: فالبشر لا يحكم عليهم، بسبب تركيبهم البيولوجي، بإبادة بعضهم البعض أو أن يكونوا تحت رحمة مصير قاسٍ من صنع الذات. (٣٤)

والفوضى الاقتصادية الضارية في المجتمع الرأسمالي كما هي اليوم هي في رأيي أس البلاء ومصدر أوجاعنا . أننا هنا إزاء جماعة ضخمة من المنتجين يسعى كل عضو فيها جاهدا إلى أن يسلب الآخرين ثمار العمل الجماعي مستأثر بها لنفسه لا بالقوة والعنف بل في المجموع باتباع أساليب لها صفة شرعية اتباعا أمنيا . ويجب ألا يفوتنا هنا أن نلاحظ أن وسائل الانتاج – أي كل القدرة على الإنتاج التي تحتاجها لإنتاج السلع الاستهلاكية وكذلك سلع رأسمالية إضافية – قد يستطيع الأفراد امتلاكها شرعا بل الواقع هو أن الجزء الأكبر منها ملكية فردية خاصة فعلا. (٣٥)

وفى مقالة كتبتها بعنوان "عمالاً" فإن أن مالك وسائل الإنتاج في وضع يستطيع معه شراء عماله العامل. وباستخدام وسائل الانتاج ينتج العامل سلعا جديدة ملكا لرأس المال والنقطة الجوهرية في هذه العملية هي العلاقة بين ما ينتجه العامل وما يتقاضاه اجرا له على إنتاجه

مقيسين كليهما بعيار القيمة الحقيقية ولكن طالما أن عقد العمل حر فإن ما يتسلمه العامل لا تحدده القيمة الحقيقية للسلع التي ينتجها إنما الذي يحدده هو أقل الاحتياجات التي لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة للعامل من ناحية واحتياج رأس المال للعمالة مرتبط مع عدد العمال الذين يتنافسون على العمل . ومن الأهمية بمكان أن نفهم أن أجر العامل لا يحدده حتى نظريا نيمة ما ينتجه. (٣٦)

ويميل رأس المال الخاص إلى التركيز في أيدي قليلة وهذا راجع جزئيا إلى التنافس بين رؤوس الأموال إلى أن التقدم التكنولوجي والتقسيم المتزايد للعمل يشجعان على تكون وحدات الإنتاج الأكبر اتساعا على حساب الوحدات الأصغر ، والنتيجة الطبيعية لكل هذا هو تحكم الأقلية التي تمثل رأس المال الذي لا يكبح جماح قوته الهائلة حتي ولا مجتمع منظم سياسياً تنظيما ديموقراطيا . وهذا صحيح لأن أعضاء الهيئات التشريعية تنتخبهم الأحزاب السياسية التي يمولها أو التي تخضع بشكل ما لنفوذ رأس المال الخاص الذي يفصل فعلا بين جماهير الناخبين والتشريع. ونشأ عن ذلك أن ممثلي الشعب لا يحمون في الواقع مصالح قطاعات السكان الذين يقع عليهم الحرمان وفوق ذلك يتحكم رأس المال مع الظروف القائمة بطريقة لا مفر منها في وسائل الإعلام بطريقة مباشرة أو غير مباشرة (الصحافة ، الإذاعة ، التعليم) وهكذا يتعثر المواطن الفرد بل وفي أغلب الأحيان يستحيل عليه أن يصل إلى قرار موضوعي وأن يستخدم بذكاء حقوقه السياسية وهكذا يتميز الموقف السائد في اقتصاد يقوم على الملكية الخاصة لرأس المال بمبدأين أساسيين: أولاهما: أن وسائل الإنتاج (رأس المال) ملك خاص بالفرد يتصرف فيه كما يشاء. وثانيهما: أن عقد العمل حر. ومن هنا فإن هذا لا يعطى لنا انطباعا عن مجتمعا رأسماليا بهذه المعنى المحدد. وهنا نلاحظ أن العمال في كفاح الحياة على مدار وقت طويل قد نجحوا في الحصول على شكل أفضل من هذا من أشكال "عقد العمل الحر" لبعض فئات العمال ومع ذلك لا يزال الاقتصاد الراهن في كلياته لا يختلف كثيرا عن الرأسمالية البحتة. (٣٧)

إننا ننتج ابتغاء للربح لا لأن الإنتاج نافع .. وليس هناك أي ضمان لأن يصبح كل الراغبين والقادرين على العمل في وضع يقيهم من البطالة فهناك بصورة شبه دائمة جيش من العاطلين والعامل في خوف مقيم من فقدان عمله . ولما كان العاطل والذي يتقاضى أجرا ضئيلا لا يكونون سوقا فإن إنتاج السلع الاستهلاكية ينكمش وتتولد عن ذلك محن كثيرة . وغالبا ما

يؤدي التقدم التكنولوجي إلى البطالة أكثر مما يؤدي إلى تخفيف عبء العمل على الجميع والرغبة في الربح وما يتصل بها من التنافس بين الرأسماليين مسئولان عن اختلال عمليتي تجميع واستخدام رأس المال وهذا يؤدي إلى انهيارات قاسية ومتزايدة. ويؤدى التنافس غير المحدود إلى اتلاف وضياع ذريع للعمل يؤدي إلى ذلك السقم في الوعي الاجتماعي الذي أشرت إليه من قبل. (٣٨)

وإذا تسألنا بخصوص تغيير حياة الإنسان فى مجتمعه لكى يحقق غايته التى تتمثل فى العيش بقدر عال من الرضا والراحة النفسية، فيجب أن ندرك باستمرار حقيقة أن هناك ظروفا معينة لا يمكننا تعديلها. وكما ذكر من قبل، فإن الطبيعة البيولوجية للإنسان، لجميع الأغراض العملية، لا تخضع للتغيير. وعلاوة على ذلك، فإن التطورات التكنولوجية والسكانية في القرون القليلة الماضية قد هيأت ظروفا لا تزال قائمة. في السكان المستقرين بشكل مكثف نسبيا مع السلع التي لا غنى عنها لاستمرار وجودهم، من الضروري للغاية تقسيم العمل ووجود جهاز إنتاجي شديد المركزية الوقت – الذي، بالنظر إلى الوراء، يبدو مثاليا للغاية – قد انتهى إلى الأبد أن يكون الأفراد أو المجموعات الصغيرة نسبيا مكتفين ذاتياً تماماً. وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن البشرية تشكل حتى الآن مجتمعا ضخما للإنتاج والاستهلاك. (٣٩)

ونشير هنا إلى أن النقطة الجوهرية التى تعد سببًا للأزمة التى يمر بها عصرنا، خاصة علاقة الفرد بالمجتمع حيث أصبح الفرد فى ظل هذا العصر أكثر وعيا بأهمية اعتماده على المجتمع ككل فى سبيل مواجهة الأزمات. لكنه لا يختبر هذا الاعتماد كأصل إيجابي، كرابط عضوي، كقوة حماية بل كتهديد لحقوقه الطبيعية، أو حتى لوجوده الاقتصادي. علاوة على ذلك، فإن موقفه في المجتمع هو أن الدوافع الأنانية لتكوينه يتم إبرازها باستمرار، في حين أن دوافعه الاجتماعية، التي هي بطبيعتها أضعف، تتدهور تدريجيا. إن جميع البشر، أيا كان مركزهم في المجتمع، يعانون من عملية التدهور هذه. إنهم سجناء غير مدركين لأنانيتهم الخاصة، يشعرون بعدم الأمان والوحدة والحرمان من التمتع الساذج والبسيط وغير المتطور بالحياة. يمكن للإنسان أن يجد معنى في الحياة، قصير ومحفوفا بالمخاطر كما هو، فقط من خلال تكريس نفسه للمجتمع.(٤٠)

ثمة نقطة أخرى يثيرها أينشتاين خلال تحليله للعلاقة بين الفرد والمجتمع وهي أن الإنسان ليس كائنا سلبيا بل هو قادر على أن يؤثر كثيرا على موقعه ودوره ومستقبله. ومن خلال الاستعانة بعلم الانثروبولوجيا والدراسات المقارنة المتعلقة بالحضارات البدائية، التي بينت أن السلوك الاجتماعي للأفراد يختلف من مجتمع إلى آخر. ومن عصر إلى آخر، فيستنتج قائلا:

«يستطيع أولئك الذين يناضلون من أجل تحسين مصير الإنسان أن يبنوا آمالهم على الفكرة التالية: ليس محكوما على البشر، بفعل طبيعتهم البيولوجية، أن يبيد أحدهم الآخر، أو أن يخضعوا لحكم قدر متوحش متأصل في النفس البشرية ذاتها». وبهذا الاستنتاج يكون أينشتاين قد أغلق الطريق منذ أواسط القرن الماضي أمام الأصوات التي ترتفع اليوم لتعلن أن رفض فكرة الاشتراكية أمر محتوم تفرضه عوامل بيولوجية كامنة في الطبيعة الإنسانية الأنانية وأن البشرية قد وصلت إلى آخر مراحل تطورها، كما قال فوكوياما وأتباعه. (٤١)

اهتم ماركس (ت١٨٨٣) اهتماما كبيرا بالعلاقات الاجتماعية لأن لها دورًا أساسيًا في التطوير الشامل للإنسان فى هذا العصر، وقد تناول أحد المفكرين الأمريكيين التابع للمذهب الماركسى موضوع الاشتراكية في مقالة له بعنوان: «الطبيعة الإنسانية وكيف تتغير» وعلاقتها بالطبيعة الإنسانية، وما يطرأ على هذه العلاقة تحت تأثير التغيرات التي يمكن أن تطرأ على المجتمع والإنسان. وقد أشار إلى أن «بعض الاشتراكيين ينفون أي دور للعامل البيولوجي، ويعتقد أن الإنسان هو انعكاس للظروف الاجتماعية، وهم يعتقدون أنهم بهذا الطرح يساعدون على جعل قضية الاشتراكية أمرا مقبولا». غير أن هذا الطرح غير مقبول، لأننا في واقع الحال لسنا مجرد انعكاس لبيئتنا بل هناك شيء آخر، يجب أخذه بالحسبان، هو الموروثات البيولوجية. في حين أن أعداء الاشتراكية يرون أن الأنانية والنزعة الشريرة من السمات الجوهرية للطبيعة الإنسانية، إلى درجة يصعب معها خلق مجتمع أفضل، مثل المجتمع الاشتراكي، الذي يعيش فيه الناس في انسجام مع بعضهم، ونشير هنا إلى نورمان جيراس (ت ٢٠١٣) السياسى البريطانى البارز الذى قدم دراسة عن فكر ماركس فى كتابة المعنون بـ ماركس والطبيعة الإنسانية، وقد ذكر في أحد صفحاته بأن ماركس آمن بأن العلاقات الاجتماعية تساهم فى تشكيل الإنسانية، إلا أن أهمية الطبيعة الداخلية للإنسان لا تقل عن ذلك، وكما صاغها ماركس قائلا إن رغبات الإنسان تكمن تحت جميع العلاقات الاجتماعية». وهذا بالذات ما أكد عليه أينشتاين، حين أعطى الدور الحاسم للعامل الاجتماعي، دون أن ينفي الدور المهم الذي يلعبه العامل البيولوجي أيضا . يواصل أينشتاين حديثه عن الأزمة في علاقة الفرد مع المجتمع. فإذا أصبح الإنسان يدرك، أكثر من أي وقت مضى، مدى ارتباطه بالمجتمع، لكنه « لم يحصل أن يعيش هذا الترابط بشكل ملموس، كشئ ثمين له قيمته الإيجابية، كصلة عضوية، كقوة واقية، لا بل والأسوأ من كل هذا أنه يعيش تحت

إحساس متواصل بأن كيانه الاقتصادي وحقوقه الطبيعية مهددة باستمرار». في المقابل، وكرد فعل على مخاوفه من الآتي تتعزز لدى الإنسان النزعات الفردية والتوجهات الأنانية وهذا في النهاية سوف يعزز الشعور «ولو بدون وعي بعدم الأمان والاستقرار، والعزلة، وبكونه محروما من أبسط متع الحياة الأولية». (٤٢)

ولعل نتساءل هنا عن الأسباب الجوهرية التي قادت إلى هذا الخلل الخطير في العلاقة بين الفرد والمجتمع؟ فالإجابة على ذلك أن فوضى اقتصادية كبيرة للنظام الرأسمالي والذى شكل اليوم مصدرا حقيقيا للشر الذى يعيش فيه الإنسان، ونرى فى هذا المجتمع عدد ضخم من المنتجين يسعى أعضائه باستمرار إلى التجريد بعضهم بعضا نتيجة ثمار عملهم الاجتماعي، فليس ذلك بأسلوب القوة، وإنما بإذعان مسالم للقوانين السائدة آنذاك».(٤٣)

خاتمة:

وختاما لما عرضت له بخصوص موقف اينشتاين من الاشتراكية وموقفه من هذا التيار الاقتصادى وأثره على الإنسان فإن ما توصلت إليه أن أينشتاين من بين أول من حث على عدم استخدامها مرة أخرى، وأصبح مدافعًا بليغًا عن الحكومة العالمية، والتي اعتبرها البديل الوحيد للسيادة، والنزعة العسكرية والحروب الحتمية وذلك وفقا لعدد من الحجج التى ساقها لذلك لقضية الحكومة العالمية، وكذلك كان له بعض رؤية محددة لمواجهة الأزمات العالمية الراهنة التى أثرت سلبا على الإنسان وتمثلت هذه الرؤية في معرفة دقائق الطاقة المنتجة والاستهلاك لأن هذه المعرفة قد لا تتوفر في الأغلب إلا متأخرة جدا ، وفوق ذلك يبدو لي ان سبب المشكلة في ألمانيا هو ضعف القوة الشرائية لدى جزء كبير من السكان – أكثر منه تضخم الانتاج الألي – ذلك الجزء من السكان الذي استبعده من العملية الإنتاجية في اثناء تطوير الصناعة وتحسين وسائله. وتخفيض ساعات العمل بصفة تدريجية والسيطرة والتحكم على قيمة النقد المتداول، وأشر أينشتاين إلى نقطة هامة وجوهرية التى بسببها عانى الإنسان المعاصر من أزمات طاحنة وهى علاقة الفرد بالمجتمع حيث أصبح الفرد فى ظل هذا العصر أكثر وعيا بأهمية اعتماده على المجتمع ككل فى سبيل مواجهة الأزمات.

هوامش البحث:

(١) James, A, schellenderg, Indiana state un terre haut. Indiana, p. 96

(٢) Ibid. p. 96

(٣) Ibid. p. 96

(٤) والتر ايزاكسون: اينشتاين ، حياته وعالمه ، ترجمة هاشم احمد محمد ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠١٣، ص ٥٤٦

(٥)المرجع السابق – ص ٥٤٦

(٦)المرجع السابق – ص ٥٤٦

(٧)المرجع السابق – ص ٥٤٧

(٨)المرجع السابق – ص ٥٤٧

(٩) James A, schellenderg, Indiana state un terre haut p.97

(١٠) Ibid. p.97

(11) Albert Einstein: Essays in Humanism, philosophichal Library_Open Road, Libgen, 2011,p64

(١٢)Ibid.

(١٣)معنى الحياه ص ٨٦

(١٤)المرجع نفسه ص ٨٧

(١٥) Einstein: Essays in Humanism, p76

(١٦)اينشتاين: افكار واراء ، ترجمة رمسيس شحاته الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١٤٨

(١٧)المرجع السابق ص ١٤٩

(١٨)المرجع السابق ص ١٤٩

(١٩)المرجع السابق ص ١٥٠

(٢٠)المرجع السابق ص ١٥٠

(٢١)المرجع السابق ص ١٥٠ ، ١٥١

(٢٢)المرجع السابق ص ١٥١

(٢٣)المرجع السابق ص ١٥٢

(٢٤)المرجع السابق ص ١٥٢

(٢٥)اينشتاين: افكار واراء ص ١٩٨

[٢٦] المرجع السابق ص ١٩٨

[٢٧] Einstein: Essays in Humanism, p57

[٢٨] اينشتاين: افكار واراء ص ١٩٩

[٢٩] المرجع السابق ص ١٩٩

[٣٠] المرجع السابق ص ١٩٩ ، ٢٠٠

[٣١] المرجع السابق ص ٢٠٠

[٣٢] المرجع السابق ص ٢٠٠

[٣٣] Einstein: Essays in Humanism, p90

[٣٤] Ibid, p85 .

[٣٥] اينشتاين: افكار واراء ص ٢٠١

[٣٦] المرجع السابق ص ٢٠١

[٣٧] المرجع السابق ص ٢٠١

[٣٨] المرجع السابق ص ٢٠١

[٣٩] Einstein: Essays in Humanism, p45

[٤٠] Ibid. p88 .

[٤١] مجدي كامل: اينشتاين عبقري غير العالم ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ٢٠١١– ص ١٧٣

[٤٢] المرجع السابق ص ١٧٤

[٤٣] المرجع السابق ص ١٧٤

مراجع البحث:

١. والتر ايزاكسون: اينشتاين ، حياته وعالمه ، ترجمة هاشم احمد محمد ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠١٣

٢. مجدي كامل: أينشتاين عبقري غير العالم ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ٢٠١١

٣. اينشتاين: افكار واراء ، ترجمة رمسيس شحاته الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦

4. James, A, schellenderg , Indiana state un terre haut . Indiana,1950

5. Albert Einstein: Essays in Humanism, philosophichal Library_Open Road, Libgen, 2011